الفصل السادس والعشرون
المرض والوفاة

اشتكى رسول الله ﷺ بعد عودته من حجة الوداع في ليال بقين من صفر، أو في أول شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر الهجري. [ابن إسحاق].

وطلب يومئذ من مولاه أبي مُوَيهِبَة أن يصحبه في جوف الليل إلى البقيع، لأنه أمر أن يستغفر لأهل البقيع، وعندما وقف بين أظهرهم قال: «**السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنى لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى**»، ثم أقبل على أبي مويهبة قائلًا: «يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة». فقال أبو مويهبة: «بأبي أنت وأمي، خذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة»، فقال رسول الله ﷺ: «**لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة**»، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف. [ابن إسحاق، حسن] إلى بيت عائشة، وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه حتى اشتد به وجعه في بيت ميمونة. [ابن إسحاق، حسن]، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها. [البخاري؛ ابن إسحاق، حسن]، واستغرق مرضه عشرة أيام. [الفتح: دلائل البيهقي صحيح]، ثم توفاه الله يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول. [نفسه]. وقد تم له من العمر ثلاثة وستون عامًا. [البخاري؛ أحمد، صحيح].

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ بالمعوذتين والأدعية الكثيرة التي حفظتها من رسول الله ﷺ، وتنفث بذلك على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة. [متفق عليه].

ويوم زادت درجة حرارة جسمه، طلب أن يصبوا عليه سبع قرب من ماء حتى يخرج للناس فيعهد إليهم، ففعلوا، حتى طفق يقول: «**حسبكم حسبكم**»، وعند ذلك أحس بخفة، فعصب رأسه ثم قام فدخل المسجد وجلس على المنبر، وخطب الناس قائلًا: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». وفي رواية: «**قاتل الله اليهود والنصارى...**». [متفق عليه]، وقال: «**لا تتخذوا قبري وثنًا يعبد**». [الموطأ]. وكانت هذه الوصية الخاصة بعدم اتخاذ القبور مساجد قبل أن يموت بخمس.

وعرض نفسه للقصاص قائلًا: «من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه» - أي يقتص -، ثم نزل فصلى الظهر، ثم عاد لمنبره لمواصلة حديثة في الحقوق وغيرها، فقال رجل: «إن لي عندك ثلاثة دراهم»، فقال: «أعطه يا فضل». وقال آخر إنه غل ثلاثة دراهم، فقال: «خذها يا فضل». [البيهقي: الدلائل].

ثم أوصى الناس بالأنصار، قائلًا: «أوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرْشِي وعَيبَتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من مُحسنهم، وتجاوَزوا عن مسيئهم». وقال في رواية أخرى: «إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر فيه أحدًا أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم». [متفق عليه].

ثم قال في آخر خطبة له: «إن عبدًا خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله»، قال الراوي: «فبكى أبو بكر رضي الله عنه فعجبوا لبكائه، فكان المخير رسول الله ﷺ وكان أبو بكر أعلمهم بذلك»، فقال النبي ﷺ: «**لا تبك يا أبا بكر، إن أَمَنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، لو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر**». [متفق عليه].

وعندما حضرته الوفاة واشتد به الوجع، وذلك يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام، قال للصحابة الذين كانوا حوله بالمنزل، وفيهم عمر: «**هلموا اكتب إليكم كتابًا لن تضلوا بعده**»، فقال عمر: «قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله»، فاختلفوا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغط والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «**قوموا عني**». [البخاري].

وأوصى في ذلك اليوم بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، ونسي الراوي الوصية الثالثة، ولعلها عامة وصيته حين حضره الموت وهي: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**». [أحمد، صحيح]، وفي لفظ: «**الله الله، الصلاة وما ملكت أيمانكم**»، كان يتكلم به وما يكاد يفيض. [ابن ماجه، صحيح؛ الذهبي: السيرة، صحيح]، وفي رواية أحمد: حتى جعل يُغَرْغِرُ بها صدره، وما يكاد يفيض بها لِسَانُه.

وقبل الوفاة بثلاث أوصى قائلًا: «**أحسنوا الظن بالله** ﷻ». [الذهبي: السيرة، صحيح]، ثم أخذ يثقله المرض ويمنعه من الخروج للصلاة بالناس فقال: «**مروا أبا بكر أن يصلي بالناس**»، فقالت عائشة: «يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف - أي رقيق - وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر»، فقال: «**مروا أبا بكر أن يصلي**»، فقالت عائشة لحفصة: «قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى... فقال ﷺ: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر أن يصلي بالناس**...» ولما لم يكن أبو بكر موجودًا في تلك اللحظات، دعا عبد الله بن زمعة عمر ليصلي بالناس، فعندما سمع الرسول ﷺ صوته، قال: «**يأبى الله ذلك والمسلمون - مرتين -**» فبعث إلى أبي بكر، فجاء فصلى بالناس. [أحمد، صحيح؛ الحاكم، صحيح].

وظل أبو بكر يصلي بالناس تلك الأيام، وفي أحدها وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، وعندما رآه أراد أن يتأخر، فأومأ إليه أن لا يتأخر، فأجلسه بجانبه، فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة رسول الله ﷺ والناس يصلون بصلاة أبي بكر. [متفق عليه].

وقبل يوم من وفاته، أعتق غلمانه. [ابن سعد، يعتضد، شاهده البخاري]، وتصدق بدنانير – ما بين التسعة والسبعة – كانت عنده. [ابن سعد، يتقوى]، وقال: «**لا نورث ما تركنا صدقة...**». [البخاري]، وفي رواية: «**لا يقتسم ورثتي دينارًا، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة**». [نفسه]، ولذا لم يترك رسول الله ﷺ عند موته دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة. [البخاري].

واستعارت عائشة رضي الله عنها في الليل الزيت للمصباح من جارتها. [ابن رجب: مجالس من سيرة النبي ﷺ]، وكانت درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير. ولعل باقي هذه الثلاثين صاعًا هو ما ذكرته عائشة رضي الله عنها في قولها: «لقد توفي النبي ﷺ وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي فأكلته ففني». [متفق عليه]. ولم تشر الروايات إلى ما تبقى من الثلاثين صاعًا في بيوت زوجاته الأخريات.

وكانت الأشياء مثل البغلة والحربة والكسوة والسلاح والسرير وقفًا يتجمل به الأئمة المسلمون بعده ويتبركون به كما كان يتجمل به، وكان ذلك في أيدي الأئمة واحدًا بعد واحد. [حماد بن إسحاق: تركة النبي ﷺ].

وفي اليوم الذي مات فيه، فاجأ الرسول ﷺ المسلمين بكشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم يصلون الصبح، ثم تبسم، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف،

ظنًا منه أن الرسول ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر. [البخاري].

وعند الضحى دعا إليه ابنته فاطمة فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، فسئلت عن ذلك بعد وفاته ﷺ، فقالت: «سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه - يلحقه - فضحكت». [متفق عليه]، وفي رواية أن سبب ضحكها كان لقول الرسول ﷺ لها: «**يا فاطمة، أما تَرْضَيْنَ أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة...؟**». [متفق عليه].

والحديث دليل من دلائل نبوته ﷺ لأن فاطمة رضي الله عنها كانت أول الناس لحوقًا به ﷺ من أهله.

ولما رأت فاطمة ما بأبيها من الوجع الشديد، قالت: «واكرب أباه»، فقال لها الرسول ﷺ: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**». [البخاري].

وكان بين يدي رسول الله ﷺ ركوة أو علبة ماء، يدخل يده في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**». [البخاري].

وبعد هذا ثقل عليه المرض فأصبح لا يتكلم، ولذا فعندما دخل عليه أسامة بن زيد رضي الله عنه دعا له بالإشارة. [ابن إسحاق، حسن].

ويبدو أن ذلك كان الوقت الذي لَدُّوه فيه، أي جعلوا في جانب فمه دواء بغير اختياره، وهو يشير إليهم بألا يفعلوا ذلك، وهم يظنون أن ذلك كان منه كراهية المريض للدواء. [البخاري]، ولكنه كان ينفي عنه تهمة الإصابة بمرض ذات الجنب الذي ظنوه. [عبد الرزاق؛ صحيح، ابن سعد، يتقوى] به، وهو نوعان: أحدهما ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن، وهو المنفي عنه هنا، وثانيهما: ريح محتقن بين الأضلاع. [الفتح].

وقد روى أبو يعلى بسند فيه ابن لهيعة من وجه آخر عن عائشة أن النبي ﷺ مات من ذات الجنب. ويمكن الجمع بين الحديثين بأن الجنب المعنية هنا هي الريح المحتقنة بين الأضلاع. [الفتح لابن حجر].

ثم بدأت اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ. فبينما كان في حجر عائشة، دخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر وفي يده سواك، فنظر إليه الرسول ﷺ، فعلمت عائشة أنه يريد السواك، فتناولته ولينته له فاستاك به، وعندما فرغ منه رفع يده وأصبعه وشخص ببصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة، وهو يقول: «**مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى**»، كررها ثلاثًا. [متفق عليه] وكان هذا آخر ما تكلم به، ثم مالت يده ولحق بالرفيق الأعلى. [البخاري].

وكان ذلك حين اشتد الضحى. [ابن إسحاق] أو في منتصف النهار. [الطبري: التاريخ]، فقالت فاطمة: «يا أبتاه، أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه، مَنْ جَنَّةُ الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه». [البخاري].

وأصح ما جاء في مدة مرضه الأخير عشرة أيام. [البيهقي: الدلائل، صحيح].

ولم يصدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه نبأ وفاة الرسول ﷺ، فأخذ يقول: «إن رسول الله ﷺ لم يمت ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى فمكث عن قومه أربعين ليلة. والله إني لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون - أو قال: يقولون - إن رسول الله ﷺ قد مات». [أحمد؛ عبد الرزاق؛ ابن إسحاق، وأسانيدهم صحيحة].

وجاء أبو بكر من السُّنح، فكشف عن وجه النبي ﷺ، ثم قبله وبكى وقال: «بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتب عليك فقد متها»، ثم خرج

إلى الناس، وهم بين منكر ومصدق، لهول الأمر، فرأى عمر وهو يكلم الناس منكرًا موت الرسول ﷺ، فطلب منه أن يجلس، فأبى، فأقبل الناس إلى أبي بكر وتركوا عمر، فحدثهم أبو بكر قائلًا: «أما بعد: من كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[آل عمران: ١٤٤]. فهدأ الناس وكأنهم لم يسمعوا الآية من قبل، وقعد عمر على الأرض لا تحمله رجلاه لما علم بموت الرسول ﷺ. [البخاري].

وفي يوم الثلاثاء، وهو اليوم التالي لوفاته ﷺ، غسلوا رسول الله ﷺ في ثيابه. [ابن إسحاق، حسن]، غسله العباس وعلي والفضل وقُثَم ابنا العباس وشُقْران مولى رسول الله وأسامة وأوس بن خولي. [ابن إسحاق، حسن].

وكان ماء غسله من بئر يقال له: الغَرْسُ، لسعد ابن خيثمة، كان يستعذب للرسول ﷺ منها. [ابن شبة، يعتضد].

وقالت عائشة رضي الله عنها عن كيفية غسله: «لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري كيف نصنع، أنُجَرِّدُ رسول الله ﷺ كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا أرسل الله عليهم السَّنَةَ حتى والله ما من القوم من رجل إلا ذَقَنُهُ في صدره نائمًا، قالت: ثم كلمهم من ناحية البيت، لا يدرون من هو، فقال: اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، قالت: فثاروا إليه، فغسلوا رسول الله ﷺ وهو في قميصه يفاض عليه الماء والسدر، ويدلكه الرجال بالقميص، وكانت تقول: لو استقبلت من الأمر ما استدبرت ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه». [ابن إسحاق، حسن].

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَّة نقية أو من سحول اليمنية من كُرْسُفٍ، (قطن) ليس فيها قَمِيْصٌ ولا عِمَامَة. [متفق عليه؛ ابن إسحاق، حسن].

ثم حفروا له قبرًا في حجرة عائشة. [الطيالسي، صحيح؛ ابن إسحاق، حسن لغيره؛ ابن ماجه، يتقوى].

وصلى عليه الناس أرسالًا أرسالًا، يدخلون من باب فيصلون عليه، ثم يخرجون من الباب الآخر، لا يؤمهم أحد. [أحمد، برجال الصحيح؛ ابن سعد، البداية]. وقيل صلى عليه أولًا بنو هاشم، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الناس حتى فرغوا، ثم النساء، ثم الصبيان. [ابن سعد]، ثم العبيد. [الطبري: التاريخ].

ثم دفنوه في ليلة الأربعاء. [ابن إسحاق، حسن].

إنا لله وإنا إليه راجعون! إنا لله وإنا إليه راجعون!!.

ولا يملك المرء المسلم إلا أن يبكي مع حسان. [ابن هشام؛ ديوان حسان]، وهو ينشد:

فَبْكِيْ رسول اللهّ يا عينُ عبرةً ... ولا أَعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعُكِ يَجْمُدُ
وَمَا لَكِ لا تَبْكِينَ ذا النِّعْمَةِ التي ... على الناس منها سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ
فَجُودِي عليه بالدُّمُوع وَأَعْوِلِي ... لِفَقْدِ الذي لا مِثْلُهُ الدَّهْرُ يُوجَدُ
وما فَقَدَ المَاضُونَ مِثْلَ ممدل ... ولا مِثْلُهُ حتى القِيَامَةِ يُفْقَدُ

ونبكي مع أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب حين بكى منشدًا:

أرِقْتُ فبات ليلي لا يزول ... وليل أخي المصيبة فيه طولُ
وأسعدني البكاء وذاك فيما ... أصيبَ المسلمون به قليلُ
لقد عُظمتْ مصيبتنا وجلت ... عَشِية قيل قد قُبض الرسولُ
وأضحت أرضنا مما عراها ... تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحيَ والتنزيل فينا ... يروحُ به ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليه ... نفوس الناس أو كادت تسيلُ

نبيٌ كان يجلو الشك عنا ... بما يوحى إليه وما يقول
ويهدينا فما نخشى ضلالًا ... علينا والرسول لنا دليلُ
أفاطم إن جزعت فذاك عذر ... وإن لم تجزعي ذاك السبيل
فقبر أبيك سيد كل قبر ... وفيه سيد الناس الرسول

[السهيلي].

ونقول باكين كما قالت ابنته وحبيبته فاطمة رضي الله عنها:

اغبر آفاق السماء وكورت ... شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبي كئيبة ... أسفًا عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها ... ولتبكه مضر وكل يمان
وليبكه الطور المعظم جوه ... والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه ... صلى عليك منزل القرآن

[السهيلي]

عظات وعبر وأحكام ووصايا:

١- كفى بالموت عظة وعبرة... لقد شاء الله تعالى أن يكون الموت نهاية كل إنسان مهما طال عمره، ومهما كان موقعه من الحياة، وتلك سنة الحياة كما عبر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الأنبياء: ٣٤-٣٥]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[الزمر: ٣٠]. فها هو محمد بن عبد الله ﷺ خير البشر، يموت بعد أن عانى من سكرات الموت وآلام المرض... وإذا وعى الناس هذه الحقيقة استشعروا معنى العبودية والتوحيد، وخضعوا لله الواحد القهار، واستعدوا للموت بالإكثار من

العمل الصالح وطاعة الله ﷻ وإخلاص العبادة له في كل مجال من مجالات الحياة، لا سيما عبادة الله ﷻ في تحكيم شرعه والجهاد في سبيل ذلك، لأن الله ﷻ يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، لأن الله تعالى الذي خلق البشر خبير بما يصلحهم في الدنيا والآخرة... ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[الملك: ١٤].

٢- مشروعية الرقية - التعويذ - ما ثبت في ذلك في الصحيحين. وقد نقل النووي. [شرح مسلم] وابن حجر. [الفتح] وغيرهما الإجماع على مشروعية الرقي عند اجتماع ثلاثة شروط: «أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وأن يكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بذات الله تعالى...». واللفظ لابن حجر.

٣- بيان فضل أبي بكر الصديق عندما أصر الرسول ﷺ على أن يؤم الناس.

٤- النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

قال العلماء عن تكراراه ﷺ عبارة «إلى الرفيق الأعلى»: (لأن التخيير لم يزل يُعادُ عليه، وهي كلمة تتضمن لقاء الله، الذي هو لُبَابُ التوحيد وسر الذكر باللسان والقلب، ومنه يستفاد أنه لا يشترط في نجاة المحتضر أن يتلفظ بـ«لا إله إلا الله»، إذا مات وقلبه مطمئن بالإيمان. والله أعلم). [الأنوار: بحرق].

٥- لقد تضمن ما سقناه من أحاديث في خبر مرض وفاته ﷺ دروسًا وعظات وعبرًا وأحكامًا يستطيع المرء أن يستنبطها بيسر.

الفصل السابع والعشرون
أمهات المؤمنين رضي الله عنهن

المشهور أن الرسول ﷺ تزوج خمس عشرة امرأة. [البيهقي: الدلائل، من مرسل قتادة]، دخل بثلاث عشرة منهن، واجتمع عنده منهن إحدى عشرة، وقبض عن تسع. [ابن المثنى: تسمية أزواج النبي ﷺ]، فأما اثنتان منهن فأفسدتهما النساء فطلقهما، وذاك أن النساء قلن لإحداهما: إذا دنا منك فتمنعي، فتمنعت فطلقها، وأما الأخرى فلما مات إبراهيم قالت: لو كان نبيًا ما مات ابنه، فطلقها، منهن خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم سَلَمة وسَوْدَة وأم حبيبة، ومن غير قريش: ميمونة الهلالية، وجُويرية الخزاعية، وزينب بنت جحش الأسدية وصفية الخيبرية. وهؤلاء التسع هن اللاتي قبض عنهن. [البيهقي: الدلائل]. وقد سبق الكلام عن زواجه من خديجة رضي الله عنها، وقد ماتت قبله بمكة كما ذكرنا وسأتناول هنا بإيجاز قصة زواجه من الثماني الباقيات، ومن تسرى بهن.

٢- سودة بنت زمعة بن قيس رضي الله عنها:

كانت من المؤمنات المهاجرات في سبيل الله عز وجل. فقد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها السَّكْرَان بن عمرو، ابن عم أبيها، فأغضب ذلك أهلها. وعندما عادت مع زوجها من هجرتها توفي زوجها السكران، وقيل توفي عنها في الحبشة. [الاستيعاب]. وتركها من غير عائل، فخشي الرسول ﷺ أن يبطش بها قومها، وكانوا أشداء وأعداء ألداء للإسلام، وأراد أن يجزيها على إسلامها ومصابها خيرًا، فلم يجد غير أن يتزوجها في

رمضان سنة عشر من النبوة. [ابن سعد]، بعد وفاة خديجة رضي الله عنها بلا خلاف والراجح زواجه بها في شوال بعد عائشة. [البداية].

وعندما طعنت في السن وذهبت حاجتها في الرجال، خشيت أن يطلقها الرسول ﷺ، وحرصت على أن تحشر في أزواجه، ولذا وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها. [متفق عليه]. ولذا كانت عائشة رضي الله عنها تقول: «ما من امرأة أَحَبَّ إليَّ من أكونَ في مِسْلاخِها من سودة بنت زمعة، إلا أنها امرأة فيها حِدَّة، فلما كَبُرَتْ قالت: يا رسول الله! قد جعلت يومي منك لعائشة». فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين: يومها، ويوم سودة. [مسلم - والمسلاخ: الجلد].

وروي أن الآية الكريمة: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[النساء:١٢٨] نزلت في هذا السبب. [تفسير الطبري، صحيح؛ أبو داود والترمذي، صحيح].

والروايات التي تذكر أن النبي ﷺ طلقها ثم ردها عندما وقفت في طريقه تطلب منه ردها؛ فهذه الروايات التي فيها مسألة وقوع طلاق، ضعيفة الإسناد، لا يحتج بها، وما في الصحيح أصح.

وكانت بدينة الجسيم ثقيلة الحركة، قالت ذات يوم للرسول ﷺ: «صليت خلفك البارحة فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم»، فضحك رسول الله ﷺ من قولها. [ابن سعد، مرسل برجال الصحيح؛ الإصابة]. ولثقلها وكبرها أذن لها الرسول ﷺ ولمن في حالها أن يدفعوا ليلة مزدلفة قبل الناس. [البخاري]. وأصح ما روي في تاريخ وفاتها أنها توفيت في خلافة عمر رضي الله عنه. [البخاري: التاريخ الأوسط، صحيح].

ولم نقف على رواية يحتج بها تحدد عمرها حين تزوجها النبي ﷺ. ومن تلك الروايات الضعيفة عن عمرها حين وفاتها، قول البلاذري. [أنساب الأشراف]: (ويقال إنها توفيت في خلافة عثمان رضي الله عنه ولها نحو من ثمانين سنة).

٣- عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما:

كانت لأبي بكر رضي الله عنه مكانة عظيمة في قلب النبي ﷺ، لما كان له من مواقف في سبيل الله في أدق اللحظات وأحرجها من مسيرة الدعوة، فلعل الرسول ﷺ أراد أن يكرم صاحبه الوفي الأمين، ويوثق عرى المحبة بينه وبين أخيه في الإسلام أبي بكر، وذلك برباط المصاهرة، فتزوج من ابنته عائشة.

وكانت عائشة رضي الله عنها صغيرة السن عندما عقد عليها الرسول ﷺ، في شوال من السنة العاشرة للبعثة النبوية [مسلم]، ولم يدخل بها إلا في شوال من السنة الثانية للهجرة. [مسلم؛ ابن سعد].

قالت عائشة رضي الله عنها: «تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة، قبل الهجرة وأنا بنت ست، وأدخلت عليه وأنا ابنة تسع سنين...». [متفق عليه]. وفي رواية أنه تزوجها وهي ابنة سبع. [مسلم].

ولقد رأى رسول الله ﷺ في المنام - ورؤيا الأنبياء حق - أن رجلًا يحملها إليه في سَرَقَةٍ. [شقق بيضاء] من حرير، فيقول: «هذه امرأتك، فيكشف فيراها، فيقول: إن كان هذا من عند الله يمضه». متفق عليه. وهذا من فضائلها الكثيرة.

ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكرًا غيرها. [البخاري].

ومن يقف على سيرة هذه السيدة العظمى تأخذه الدهشة لذكائها وفطنتها وغزارة علمها وفقهها وسمو أخلاقها، وسيعلم حينها، لماذا كانت بتلك المكانة الكبيرة عند رسول الله ﷺ. [الإصابة؛ كتب الحديث].

٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها:

لقد توفي عنها زوجها خُنَيس بن حُذَافَة السَّهمي المهاجري البدري، صاحب الهجرتين - الحبشة والمدينة. [البخاري؛ الإصابة] -، إذ أصابته جراحة يوم أحد، فمات منها. [الإصابة؛ الاستيعاب]. وروي أنه توفي بعد بدر. [ابن سعد].

وتزوجها رسول الله ﷺ للحكمة ذاتها التي تزوج من أجلها عائشة وسودة رضي الله عنهما، إضافة إلى حزنها الشديد على زوجها المجاهد، وحزن عمر لحزنها، فعرض زواجها على حبيبيه أبي بكر وعثمان، لعل في الاقتران بهما مواساة لها وإخراجها من أحزانها. فاعتذر عثمان بحجة عدم حاجته في النساء، وسكت أبو بكر، ولذا وجد عمر في نفسه عليه أكثر مما وجد على عثمان. وما لبث ليالي حتى خطبها رسول الله ﷺ، ولقيه أبو بكر وأوضح له سبب سكوته، وهو أن الرسول ﷺ كان قد ذكرها، فكره إفشاء سر رسول الله ﷺ وقال: «لو تركها رسول الله ﷺ قبلتها». [البخاري؛ أحمد، صحيح]. وفي هذا دليل على أن الرسول ﷺ كان يشعر بما تعانيه حفصة من تأيم، فأراد أن يواسيها، ويواسي أباها لمكانته عنده.

وروي أن الرسول ﷺ طلقها ثم راجعها [أبو داود، صحيح؛ ابن ماجه؛ الدارمي]. ودخل عليها عمر وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إن النبي ﷺ طلقك وراجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا كلمتك كلمة أبدًا». [الطبراني، برجال الصحيح؛ ابن إسحاق: السير، حسن؛ ابن حبان، صحيح].

وعندما طلقها الرسول ﷺ أتاه جبريل ﷺ فقال له: «راجع حفصة، فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة». [الطبراني، برجال الصحيح].

وفي هذه الأحاديث ما يكفي للدلالة على حكمة زواج الرسول ﷺ من حفصة.

٥- زينب بنت خُزَيمة الهلالية رضي الله عنها:

كانت زوجة للطفيل بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، فطلقها. [ابن سعد]، وقيل كانت عند جَهم بن عمرو بن الحارث. [ابن إسحاق]، فتزوجها بعده عُبيدة ابن الحارث، فقتل ببدر شهيدًا. [ابن سعد]، وقيل كانت تحت عبد الله بن جحش، وقتل عنها يوم أحد شهيدًا. [الاستيعاب، الإصابة]، وكانت تدعى أم المساكين في الجاهلية لرحمتها إياهم ورقتها عليهم. [ابن إسحاق، ابن سعد]. فقد روى الزبير بن بكار. [في المنتخب] أن الرسول ﷺ عندما تزوجها أَوْلَمَ عليها جزورًا، فكثر المساكين، فتركهم الناس والطعام..

وهي أخت أم المؤمنين مَيْمُونة بنت الحارث رضي الله عنها لأمها. [الاستيعاب، الإصابة]، هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة الحميرية. [المحبر].

إن امرأة تعاقب عليها هذا العدد من الأزواج، منهم شهيدان، وما عرف عنها من الصلاح والرأفة على المساكين، لجديرة بأن تحظى بعطف الرسول ﷺ وتقديره لظروفها، ولم يكن هناك أفضل من تكريمه لها بالزواج منها، فتزوجها الرسول ﷺ في رمضان، على رأس واحد وثلاثين شهرًا من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت في آخر شهر ربيع الأول، على رأس تسعة وثلاثين شهرًا من الهجرة. [ابن سعد]. ولم يمت من أزواجه في حياته ﷺ غيرها وغير خديجة بنت خويلد.

وقيل إن عمرها كان نحو ثلاثين عامًا عندما توفيت. [ابن سعد]، ويستبعد ذلك، لأن امرأة كانت تدعى في الجاهلية بأم المساكين، ثم عاشت في الإسلام خمس عشرة سنة، لابد أن يكون عمرها عندما ماتت أكبر من ذلك بكثير.

وقد ذكر الصواف [زوجات النبي ﷺ] أنها بلغت الستين من العمر عندما تزوج بها النبي ﷺ، ولكنه لم يبين لنا مصدره، ولو ثبت ذلك لكان الأقرب إلى الصواب، والله أعلم.

ولم تهتم المصادر بسيرتها في بيت الرسول ﷺ، لا سيما علاقاتها بزوجاته: سودة وعائشة وحفصة، مما يدل على أنه لم يكن بها ما يدعو لغيرة النساء عليها، فلم يأبه بها أحد، ولم تأبه بأحد، ولعل قصر مدة إقامتها في بيت النبوة كان سببًا في ذلك.

٦- أم سلمة - هند بنت أبي أمية - المخزومية رضي الله عنها:

لقد حفظ التاريخ لهذه السيدة ذكرًا مجيدًا، إذ كانت من شهيرات المؤمنات، العاملات وراء صفوف المجاهدين في غزوة أحد، كما ذكرنا، وكان لها رأي سديد كما ذكرنا في قصتها مع النبي ﷺ يوم الحديبية. ومن أبرز مجاهداتها أنها هاجرت إلى الحبشة مع زوجها أبي سلمة، عبد الله بن عبد الأسد، ابن عمة النبي ﷺ وأخيه من الرضاعة.

وكان لزوجها بلاء حسن يوم أحد، حتى جرح جرحًا كبيرًا، اندمل بعد فترة، ثم عاوده واشتد عليه ألمه، وكان سببًا في وفاته كما ذكرنا.

لقد مات رضي الله عنه وخلف وراءه أربعة من الأولاد، هم: زينب وسلمة وعمر ودرة. [ابن سعد]. وقد حرص الرسول ﷺ على مواساتها عمليًا بأن يكرمها بضمها إلى نسائه والقيام بأمرها، لأنها من المهاجرات، ولم يكن لها أهل بالمدينة، غير أبنائها.

وروي عنها أنها قالت: «أتاني أبو سلمة يومًا من عند رسول الله ﷺ بقول فسررت به، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تصيب أحدًا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم أْجُرْنِيْ في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها إلا فعل ذلك به**»، قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أْجُرْنِيْ في مصيبتي وَأَخْلِفْ لي خيرًا منه، ثم رجعت إلى نفسي، قلت: من أين لي خير من أبي سلمة، فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله ﷺ... وأذنت له... فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة في، ولكني

امرأة فيَّ غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئًا يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله ﷻ منك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي، قالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ، فتزوجها رسول الله ﷺ، فقالت: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرا منه، رسول الله ﷺ». [مسلم؛ أحمد، صحيح؛ الترمذي، صحيح؛ ابن ماجه، صحيح؛ ابن سعد، صحيح].

وفي رواية أنه لما انقضت عدتها من أبي سلمة خطبها أبو بكر فردته، ثم خطبها عمر فردته، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت: «مرحبًا برسول الله ﷺ إني امرأة غيرى، وإني مُصْبِيَة. [ذات الصبيان]، وليس أحد من أوليائي حاضرًا، فبعث إليها رسول الله ﷺ: أما قولك إني مصبية فان الله يكفيك صبيانك، وأما قولك إني غيرى فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم شاهد ولا غائب إلا سيرضاني، فقالت: «يا عمر: قم فزوج رسول الله ﷺ...»[أحمد، صحيح].

وكان زواج الرسول ﷺ بها في شوال سنة أربع. [ابن سعد].

وكانت آخر من توفي من زوجات النبي ﷺ، كما في الإصابة وغيرها.

٧- جُوَيْرِيَة بنت الحارث رضي الله عنها:

لقد سبق الكلام عن قصة زواجها في غزوة بني المصطلق.

أراد الرسول ﷺ إكرام هذا الصنف من النساء الأسيرات، فسوى بينهن وبين الحرائر، وضرب للناس أصدق الأمثال على سماحة الإسلام. فأزال من الأذهان ما كان قد علق بها من احتقار للإماء، واتخاذهن فقط للبيع أو للخدمة، وحرمن من نعمة العتق إلا بالمكاتبة وشراء أنفسهن من مالكهن. فتعلم المسلمون من هذه الزيجة كيفية

صيانة سيدات الأسر الكريمة بين قومهن ورحمة عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقـر. وقـد زخر التاريخ الإسلامي بعد هذا بالسبايا اللائي تزوجهن أسيادهن من الخلفاء والأمراء والسادة والكبراء، وأنجبن الخلفاء والأمراء والقادة العظماء والعلـماء، وتأمـل في ذلـك تاريخ خلفاء بني العباس. [زكريا كتابجي: الترك في مؤلفات الجاحظ].

٨- زينب بنت جحش رضي الله عنها:

هي ابنة عمة الرسول ﷺ أُمَيمَة. وقد زوجها الرسول ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، الذي أعتقه وتبناه إلى أن أبطل الله عادة التبني. ونزل في قصة زواجها من زيد رضي الله عنه ثم الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾[الأحزاب:٣٧].. [البخاري]

فقد روى البخاري أن زيدًا جاء يشكو زوجته، فجعـل النبـي ﷺ يقـول: «**اتـق الله وأمسك عليك زوجك**»، قالت عائشة: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًـا شـيئًا لكـتم هـذه، فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجنـي الله مـن فوق سبع سماوات.

لقد كان زواج الرسول ﷺ منها لهلال ذي القعدة من العام الخامس الهجري، وهي بنت خمس وثلاثين. [ابن سعد] لحكمة، وهي إبطال عادة التبني كما هو واضـح مـن آيـة سورة الأحزاب المذكورة.

وخلاصة ما ورد في تفسير هذه الآية أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه.

[الترمذي، صحيح]، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني، وليس أبلغ في إبطاله من تزوج امرأة الذي يُدْعَى ابنًا، ووقوع ذلك أمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم. [عبد الرزاق؛ الترمذي؛ تفسير ابن كثير؛ ابن حجر].

هذا الذي ذكرناه من الصحيح يغنينا عن مناقشة الروايات الكثيرة الساقطة التي نسجت حول قصة زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش، لا سيما روايات الواقدي، التي كانت مرتعًا خصبًا لأهل الأهواء في القديم والحديث، من زنادقة ومستشرقين ومن على شاكلتهم. وقد ألف د. زاهر الألمعي كتابًا في الرد عليهم.

٩- رَيحانة بنت زيد بن عمرو بن خُنَافة رضي الله عنها:

قيل: ومن أزواجه ريحانة بنت عمرو النضيرية. [الإصابة؛ الاستيعاب]، وقيل: القريظية. [نفسه]، سبيت يوم غزوة بني قريظة، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه فأعتقها وتزوجها. [الواقدي؛ ابن بكار]، ثم طلقها تطليقة، ثم راجعها. [ابن سعد].

وقالت طائفة: بل كانت أمته وكان يطؤها بملك اليمين، فهي معدودة عندهم في السراري. [ابن إسحاق]، واختلفوا في تاريخ وفاتها، هل كان قبل الرسول ﷺ أم بعده؟ ولم يرجحوا قولًا على آخر. [الواقدي]، والذي نميل إليه أنها ماتت في حياة الرسول ﷺ لقوة أسانيد القائلين بهذا، وهو ما جزم به ابن عبد البر. [الاستيعاب؛ ابن سعد].

١٠- أم حبيبة - رَملة بنت أبي سفيان بن حرب رضي الله عنها:

هاجرت أم حبيبة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي إلى الحبشة، ومات هناك.

وعندما علم الرسول ﷺ بارتداد زوجها وثباتها على الإسلام أرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها له، فزوجها إياه بصفته وكيلًا عن النبي ﷺ، فوكلت هي خالد بن سعيد بن العاص، ابن عم أبيها. وبعث بها النجاشي إلى المدينة مع

شُرَحْبيل بن حَسَنَة، وكان مهرها وجهازها من عند النجاشي. [أحمد، جيد؛ أبو داود؛ النسائي؛ ابن هشام، حسن؛ ابن سعد].

وكان ذلك سنة سبع، وكان لها بضع وثلاثون سنة. ولدت لابن جحش ابنته حبيبة، قيل بالحبشة وقيل بمكة. [ابن سعد].

وللأستاذ محمد بن عبد الله العوشن بحث بعنوان: (تحقيق دعوى ردة عبيد الله ابن جحش)، نشر بمجلة: البيان، العدد ١٨٢، السنة: (١٧)، شوال ١٤٢٣هـ/ ديسمبر ٢٠٠٢م، صفحة ٢٢-٢٤، خلص فيه إلى عدم ثبوت قصة ردة عبيد الله ابن جحش، رواية ودراية، ومما قاله في هذا: (١- أنها لم ترو بسند صحيح متصل، فالموصول من طريق الواقدي - وهو متروك الحديث - والمرسل جاء عن عروة بن الزبير، ولا يمكن أن نحتج بالمرسل (عند من يرى الاحتجاج به) في مسألة كهذه عقدية؛ فيها الحكم على أحد الصحابة السابقين الأولين إلى الإسلام رضي الله عنهم بالردة). (٢- أن الروايات الصحيحة في زواجه ﷺ بأم حبيبة لم تذكر ردة زوجها السابق، كما في رواية أحمد، وأبي داود، والنسائي...).

وحكمة هذا الزواج لا تخفى على أحد يعلم ثبات أم حبيبة رضي الله عنها على دينها عندما فقدت زوجها بالحبشة، وموقف والدها من الدعوة الإسلامية وقيادته لكل حروب قريش ضد المسلمين ما عدا غزوة بدر، لأنه كان صاحب القافلة التي جعلها الله سببًا في تلك الغزوة. ففي زواجه منها مواساة لها في مصيبتها في زوجها وغربتها، وقطع الطريق أمام شماتة الأعداء، وفيه تخفيف من غلواء عداوة قومها بني أمية للإسلام ونبي الإسلام، وقد حرص الرسول ﷺ على ذلك كما هو واضح من موقفه من أبي سفيان يوم فتح مكة وعند تقسيم غنائم حنين، وغيرها من المواقف، إلى أن هداهم الله عز وجل إلى الإسلام، فأصبحوا قوة وعزة ونصرة للإسلام في مستقبل أيامه.

١١- صفية بنت حيي بن أخطب النضيرية رضي الله عنها:

عندما افتتح المسلمون خيبر، سبيت النساء، منهن صفية، فاصطفيت للرسول ﷺ بعد أن وقعت في سهم دِحْيَة، فعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها. [متفق عليه]. ودخل عليها في طريق العودة إلى المدينة، وتطوع لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري، خوفًا منه على الرسول ﷺ أن تغدر به. [ابن سعد]، ولكن اتضح أنه لم يكن في قلبها يومذاك أي حقد على الرسول ﷺ، لأنها آمنت بالرسول ﷺ من أول وهلة، يوم اصطفاها له أصحابه يوم خيبر، أو يوم اشتراها من دحية. ومن أدلة ذلك أن الرسول ﷺ عندما أراد أن يدخل عليها وهم على بعد ستة أميال من خيبر، أبت عليه، وعندما وصل إلى الصَّهْبَاء، على بعد بريد من خيبر، وافقت، فسألها عن سبب الامتناع في المرة الأولى، فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فزادها ذلك عنده محبة. [نفسه]. وقال لها الرسول ﷺ: «**لم يزل أبوك من أشد يهود لي عداوة حتى قتله الله**»، فقالت: «يا رسول الله، إن الله يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾»، فقال لها رسول الله ﷺ: «**اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك**»، فقالت: يا رسول الله، لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني، حيث صرت إلى رحلك، وما لي في اليهودية أَرَبٌ، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب إلي من العتق وأن أرجع إلى قومي». فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه زوجة.

كانت أمها إحدى نساء بني قينقاع، فتزوجها سَلَّام بن مِشْكَم النضيري، ثم فارقها فتزوجها كِنانة بن أبي الحقيق، فقتل يوم خيبر. ولم يسمع النبي ﷺ ذاكرًا أباها بحرف مما تكره.

لقد كان في زواج الرسول ﷺ منها ذات الحكمة من زواجه من جويرية رضي الله عنها. فهي ابنة زعيم من زعماء اليهود، مات هو وزوجها وأخوها في صراعهم ضد الرسول ﷺ، فكان لابد من إكرامها لمكانها عند اليهود.

ودل هذا الزواج على أن تهمة العنصرية ضد اليهودية لم تكن واردة في قاموس الرسول ﷺ السياسي والاجتماعي، وليفهم اليهود أن قضيتهم مع الرسول ﷺ والمسلمين ليست قضية عنصرية كما أشاعوا.

عاشت صفية رضي الله عنها في بيت النبوة معززة مكرمة. وكان الرسول ﷺ يلقنها الحجج عندما يقع بينها وبين بعض بقية نسائه ما يقع بين الضرائر. فقد أخرج الترمذي. [صحيح] من طريق أنس، قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «**ما يبكيك؟**» قالت: قالت لي حفصة إني ابنة يهودي، فقال النبي ﷺ: «**وإنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك**»، ثم قال: «**اتقي الله يا حفصة**».

وهجر الرسول ﷺ زينب بنت جحش ثلاثة شهور، لأنها عيرت صفية باليهودية. ولما رفع الرسول ﷺ عنها الهجران أهدته جارية لها فرحًا بهذا العفو وندمًا على تلك الزلة. [أحمد، جيد]. وكان ذلك في حجة الوداع كما يفهم من سياق القصة في هذا الحديث الصحيح وفي غيره من الأحاديث.

١٢- ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها:

تكلمنا عن قصة زواجها عند الحديث عن عمرة القضاء. وما يمكن إضافته هنا هو أن مما رغب الرسول ﷺ في الزواج منها ما عرفه عنها من الصلاح والتقوى، فقد قالت عائشة عنها: «... أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم». [ابن سعد، صحيح].

وقال رسول الله ﷺ عنها وعن أخواتها: «الأخوات مؤمنات ميمونة وأم الفضل وأسماء». [الإصابة؛ ابن سعد، صحيح].

وكان عمه العباس حريصًا على أن يقترن الرسول ﷺ بها، فقد قال له: «يا رسول الله، تأيمت ميمونة بنت الحارث.. هل لك في أن تتزوجها؟». [الاستيعاب، مرسلًا] ولا شك أن العباس رضي الله عنه كان من أعرف الناس بها، لأنها أخت زوجه أم الفضل.

وامرأة هذا شأنها لجديرة بأن يضمها الرسول ﷺ إلى بيت النبوة مواساة لها في فقدها زوجها واعترافًا منه بفضلها وتحبيبًا لقومها في الإسلام.

١٣- السراري:

لم يتسر رسول الله ﷺ بغير مارية القبطية، أم ولده إبراهيم، وجارية أخرى أصابها في بعض السبي [البداية؛ أحمد؛ الزاد]، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش [أحمد، جيد]، وريحانة بنت زيد التي اختلف في أمرها، والراجح أنه كان يطؤها بملك اليمين، وروي أن الرسول ﷺ قال عن مارية عندما ولدت له إبراهيم: «**أعتقها ولدها**». [البداية، يعتضد].

ولو أراد الرسول ﷺ أن تكون له عشرات الجواري والسراري لما انتقص ذلك من حقه في مجتمع كان لا يرى بأسًا من التعدد في الزوجات واتخاذ السراري متى ما تيسر له ذلك ماديًا وجسديًا، وما سمعنا أن اليهود والنصارى قد جعلوا من كثرة زوجات وسراري سليمان ﷺ. [البخاري، ومسلم] قضية كما فعلوا مع تعدد الزوجات عند الرسول ﷺ.. ولا شك أن الغرض الباطل هو المحرك لهذه القضية في زماننا هذا...

حكمة هذا التعدد:

وخلاصة القول: إن أمهات المؤمنين اللائي توفي عنهن رسول الله ﷺ كن معلمات ومفتيات لنساء الأمة الإسلامية ورجالها في القضايا النسائية والأحكام الشرعية والآداب الزوجية والحكم النبوية، وكن قدوة صالحة في الخير والبر والإحسان، كما كان

الرسول ﷺ المثل الأعلى في حسن الخلق وطيب العشرة مع نسائه. فقد عاشرهن بالمعروف، وعدل بينهن وعلمهن الأحكام الشرعية الخاصة بالنساء. وسياسة النبي ﷺ في تعدد الزوجات هي السياسة الرشيدة التي اقتضتها ظروف الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت، ومن الصعب أن تقوم زوجة واحدة بمهام تبليغ تلك الأحكام إلى الناس». [الصواف: زوجات النبي ﷺ].

ولم يكن هناك ما يغريهن بالبقاء في بيت الرسول ﷺ سوى هذه المهمة الجليلة، لأن الأخبار قد تواترت لتقطع بأن زوجات الرسول ﷺ كن يعشن في شظف من العيش إلى الحد الذي طالبنه فيه بزيادة النفقة عليهن، فخيرهن الرسول ﷺ بين الطلاق وبين قبول هذه المعيشة الصعبة معه. [متفق عليه]، وذلك في قصة طويلة وثابتة بنص القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾[الأحزاب:٢٨-٢٩].

ويلحظ أن من بين زوجات الرسول ﷺ، الصغيرة التي ما تزال تلعب مع أترابها بلعب الأطفال، والمسنة، وابنة عدو لدود، وابنة صديق حميم، ومنهن من كانت تشغل نفسها بتربية الأيتام، ومنهن من تميزت على غيرها بكثرة الصيام والقيام... إنهن نماذج لأفراد الإنسانية، ومن خلالهن قدم رسول الله ﷺ للمسلمين تشريعًا فريدًا في كيفية التعامل السليم مع كل نموذج من هذه النماذج البشرية.

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى المدينة لم يكن أمر العداء قاصرًا على قريش، بل تعداها إلى غيرها من قبائل العرب، فاقتضت الحكمة أن يجمد الرسول ﷺ بعض أطراف هذا العداء، وذلك بالإصهار إلى قبائل شتى، لأن أعراف العرب كانت تقضي بأن يحمي أهل المرأة زوج امرأتهم، كما تفيد ذلك لغتهم، إذ يسمون أنفسهم بالأحماء - من الحماية -.

ولما كانت هذه المصلحة يمكن أن تستغل استغلالًا سيئًا، نظرًا لأن الأمور الجنسية تتبعها النفوس اللاهثة، فقد جعل الله تعالى ذلك التعدد بتلك الكيفية خاصًا برسول الله ﷺ، وحدد عدد الزوجات لغيره بأربع زوجات كحد أقصى. [رواس: قراءة جديد للسيرة].

وتجدر الإشارة هنا أيضًا إلى أن من دلائل سمو أهداف تعدد زوجات الرسول ﷺ ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ خطب امرأة من قومه يقال لها سودة، فاعتذرت [وهي غير سودة بنت زمعة أم المؤمنين، لم يعرف نسبها، ولذلك ترجمها الحافظ في الإصابة (٤/ ٣٣٩) باسم سودة القرشية]، وكانت مُصْبِيَة، لها خمسة صبية أو ستة، من بعل لها مات، فقال رسول الله ﷺ عندما اعتذرت: «**ما يمنعك مني؟**»، قالت: والله يا نبي الله، ما يمنعني منك أن لا تكون أحبَّ البَرِيَّة إليَّ، ولكني أكرمك أن يَضْغُوَ هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية، قال: «فهل منعك مني غير ذلك؟» قالت: لا والله، قال لها رسول الله ﷺ: «**يَرْحَمُكِ الله، إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل صَالِحُ نساء قريش، أحناه على ولد في صِغَرٍ، وأرعاه على بَعْلٍ بذات يد**». [أحمد، حسن] وقال ابن حجر. [الفتح] بعد سياقه هذا الحديث: (وأصله في البخاري من وجه آخر، لكن لم يسمها). وأشار كذلك إلى أصله عند مسلم.